ملامح الأصالة
فى آراء ابن سلام النقدية

د. على عبد الخالق على

تعد شهرة أبى عبد الله محمد بن سلام الجمحى (١) فى رواية الشعر ونقده أوسع من شهرته فى رواية اللغة ، كما أن شهرته فى التأريخ للشعر ونقده تعزى لكتابه (طبقات الشعراء) (٢) .

---

(١) أبو عبد الله محمد بن سلام بن عبد الله بن سالم الجمحى ولد ـ على وجه التقريب عام ١٣٩ هـ بالبصرة ، وعاش ببغداد حتى توفى بها سنة ٢٣١ هـ أو سنة ٢٣٢ هـ وكانت نشأته ببيت علم وأدب ، فوالده كان من الرواة ، نقل عنه ابنه شعرا كثيرا فى كتابه ، وهو يعد أحد الرواة والاخباريين وعلماء اللغة والنحو ، فضلا عن أنه من أعلم أهل زمانه بتذوق الأدب ونقده .

وقد درس ابن سلام على جملة من علماء زمانه ، أمثال أبان بن عثمان وخلف الأحمر ومروان بن أبى حفصة والمسيب بن سعيد والمفضل الضبى وأبى عبيدة معمر بن المثنى ، ويونس بن حبيب وأبى زيد الطائى ، كما روى عنه جمع كثير من علماء عصره ، منهم أحمد بن حنبل وأحمد بن يحيى (ثعلب) والمازنى ، والرياشى وابن أخته أبو خليفة الجمحى ، وهو الذى روى عنه طبقات الشعراء باجازته .

(انظر الأستاذ : طه أحمد ابراهيم ـ تاريخ النقد الأدبى عندالعرب)

(٢) حقق لأول مرة على يد المستشرق الألمانى (جوزيف هل) ، وطبع بمطبعة بريل بليدن : سنة ١٩١٣ م مسبوقا بمقدمة موجزة من المحقق الألمانى وهى التى اعتمدت عليها فى الاستشهاد بالنصوص ، ثم قام بتحقيقه الأستاذ محمود محمد شاكر وأخرجته دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٢ م وقد رأى الأستاذ شاكر أن (يعنون) للكتاب باسم (طبقات فحول الشعراء) بدلا من طبقات الشعراء معتمدا فى ذلك على بعض الحجج .

وذكر صاحب « الفهرست » أن الكتاب عرف سابقا بكتابين منفصلين هما « طبقات الشعراء الجاهليين » و « طبقات الشعراء الاسلاميين » ثم انه أراد الجمع بينهما ــ فيما بعد ــ فى مجلدة واحدة فيما عرف بـ « طبقات الشعراء » (١) ٠

على أن أهمية المادة العلمية لكتاب « طبقات الشعراء » لاترجع للناحية التاريخية من حيث كونه قد اتخذ ركيزة بنى عليها جوهر « التاريخ الأدبى » ، فى تراجم الشعراء وتسلسل عصورهم ، والنظر لبيئاتهم ، والحديث عن بعض اجناس الشعر وحسب ــ بل ترجع ــ كذلك ــ للجانب الفنى ، والنظر القيمى حيث انه يعد أول مؤلف علمى فى النقد الأدبى ، مما حدا بالمستشرق الألمانى « جوزيف هل » (٢) الوقوف فى مقدمة تحقيقه للكتاب حول طريقة ابن سلام ومنهجه فى الكتاب ، والتى كانت شائعة فى زمانه ، وفيمن جاء بعده ، فلقد كان التأليف القديم يجرى على طريقة الرواية ، بنقل الخبر بلفظه أو بفحواه عن راو آخر ٠٠ كما فعل « ابن دريد » فى روايته لكتاب « فحول الشعراء » للأصمعى بينما كان « أبو حاتم السجستانى » هو

---

(١) ابن النديم : الفهرست ١١٣ ، وانظر : الأستاذ طه أحمد ابراهيم تاريخ النقد الأدبى عند العرب ، ص : ٧٥ ، وجورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ١٠٨/٢

(٢) مستشرق ألمانى (١٨٧٥ ــ ١٩٥٠) درس الأدب العربى ونشر أجزاء من شعر الهذليين ودراسة عن الفرزدق ، فضلا عن نشره لكتاب طبقات الشعراء لابن سلام ٠

(٣) نشره المستشرق الألمانى (جارلز تورى) ٠

جامع الكتاب ومدونه ، أما الأصمعى فهو الذى أوجد فكرة الكتاب وهـو السبب الروحى له (١) .

ويتضح من مقدمة المستشرق « جوزيف هل » أن الكتاب مر بثلاث مراحـــل :

المرحلة الأولى : وهى الأساس فى ابتكار فكرته ومنهجه ، بترتيب الشعراء فى طبقات مختلفة . وفيما يغلب على الظن فان ابن سلام هـو الذى وضع فكرة الكتاب على هذا النحو ، وحدث به ، ولم يخطه بنفسه، وسياق الكتاب يدل على أن ابن سلام حدث بالكتاب ولم يخطه بيديه ، وذلك على مجرى العادة فى صدر التأليف الاسلامى (٢) .

المرحلة الثانية : وتتمثل فيما قام به ابن أخته « أبو خليفة الفضل ابن الحباب الجمحى ت ٣٠٥ هـ » باستملاء الكتاب وتدوينه وتنظيمه .

المرحلة الثالثة : قيام « أبى محمد بن أحمد الذهلى ت ٣٦٧ هـ » برواية الكتاب عن « أبى خليفة » ، فكان « الذهلى » يقول :

أخبرنا أبو خليفة الفضل بن الحباب قال : أخبرنا أبو عبـــد الله محمد بن سلام قال : سمعت يونس بن حبيب يقول : ما شهدت مشهدا قط ذكر فيه جرير والفرزدق وأجمع أهل المجلس على أحـــدهما ... ويمضى « الذهلى » فيقول : أخبرنا أبو خليفة أخبرنا محمد بن سلام ، أنشدنا يونس للفرزدق حين طاق « النوار » :

---

(١) انظر مقدمة المستشرق الألمانى (جوزيف هل) لكتاب (طبقات الشعراء) المطبوعة بـ (ليدن) سنة ١٩١٣ م .

(٢) انظر : عمر فروخ : تاريخ الأدب العربى ٢٤٨/٢ بيروت ـ دار العلم للملايين .

ندمت ندامة الكسعى لمـــا
غدت منى مطلقة « نوار » (١)

وابن سلام له منهجه الخاص فى رواية الشعر قائم على التوثيـق وسرد الأسانيد ، يختلف فيه عن كل معاصريه حتى عن الأصمعى الراوية الثبت ، فالأصمعى كان يعرض للرأى بعد الرأى فى أحد الشعراء ، ثم يتعداه لغيره ، وذلك دون نظام أو تنسيق يربط الشعراء فى اتجاه واحد أو تسلسل واضح ، أو زمان ومكان معينين ، أما ابن سلام فكان حريصا فى منهجه على جمع كل من ضمهم اتجاه فنى واحد أو موضوع بذاته ، أو زمان ومكان خاص فى طبقة واحدة ، بحيث يعرض لكل شاعر فى طبقة برأى ، ثم ينتقل من رأيه فى شعر كل طبقة الى اتجـــاه وآراء عامة ، وملامح قريبة التحديد من منزع كل مجموعة أو طبقة واحدة .

كما يفرق منهج ابن سلام فى جمع الأخبار عن منهج الأصمعى فى أنه كان كثير الاعتماد على اسناد الأخبار لأصحابها ، وعـلى رد الآراء الصحيحة لمن سبقه بعد ترشيقها على نحو « قال أبو محمـــد أخبرنا أبو طالب محمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر بن بجير القاضى أخبـرنا أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى قال : وللشعر صناعة وثقـــافة يعرفها أهل العلم » (٢) : ومثل أخبرنا ابن سلام قال : أخبرنى يونس أن أبا عمرو بن العلاء كان أشد تسليما بالعرب (٣) .

---

(١) طبقات الشعراء : ٧٤ ـ مطبعة بريل ـ ليدن سنة ١٩١٣ م .
(٢) المصدر السابق نفسه ٣ مطبعة بريل ـ ليدن سنة ١٩١٣ م .
(٣) المصدر السابق نفسه ٦ مطبعة بريل ـ ليدن سنة ١٩١٣ م .

وقد ذكر ابن سلام فى أول الكتاب مجموعة من الرواة الثقة والنحويين ممن كانت لهم قدم راسخة باللغة فى البصرة وفى غيرها جعلهم مصدر رواياته ، اذ شهد بالتقدم لأبى الأسود الدؤلى ، ظالم ابن عمرو بن سفيان ، الذى وضع أبوابا فى النحو وأخذ عنه يحيى بن يعمر وميمون الأقرن وعنبسه الفيل ونمر بن عاصم الليثى ، وذكر من بعدهم عبد الله بن أبى اسحاق الحضرمى ، وأبا عمرو بن العلاء وعيسى ابن عمر ، الذى أخذ العلم عن أبى اسحاق ، وأخذ يونس عن أبى عمرو ابن العلاء .

ويذكر ابن سلام أنه سمع أباه يسأل يونس عن ابن أبى اسحاق وعن علمه فقال يونس « هو والنحو سواء ، وهو الغاية . قال : فأين علمه من علم الناس اليوم ؟ قال : لو كان فى الناس اليوم لا يعلم الا علمه لضحك منه ، ولو كان فيهم من له ذهنه ونفاذه ونظره كان أعلم الناس . قال : وقلت أنا ليونس : هل سمعت من ابن أبى اسحاق شيئا ؟ قال : نعم . قال : قلت : هل يقول أحد الصويق يعنى السويق قال : نعم عمرو ابن تميم يقولها .. قال ابن سلام قال : وسمعت يونس يقول : لو كان أحد ينبغى أن يؤخذ بقوله كله فى شىء واحد كان ينبغى لقول أبى عمرو ابن العلاء فى العربية أن يؤخذ كله ، ولكن ليس أحد الا وأنت آخذ من قوله وتارك (١) .

ثم كان الخليل بن أحمد ، وهو رجل من الأزد من فراهيدة .. قال : فنقلنا ذلك الى خلف بن حيان أبى محرز الأحمر أجمع أصحابنا أنه كان أفرس الناس ببيت شعر وأصدقه لسانا كنا لا نبالى اذا أخذنا منه خبرا أو أنشدنا شعرا أن لا نسمعه من صاحبه ، وكان أبو عبيدة

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٦ ـ ٧ . الصوق : السوق ، وقد صاق الدابة يصوقها وبالضم : السوق ، والصاق : الساق والصويق : السويق ـ انظر مادة (صوق) .

والأصمعى من أهل العلم • وأعلم من ورد علينا من غير أهـل البصرة المفضل بن محمد الضبى الكوفى (١) •

على أن ابن سلام بقدر ثقته فيمن يروى عنهم الا أنه جعلهم مراتب فى درجة الوثوق بعلمهم ومبلغ الاطمئنان لأخبارهم « وأما ثقتـــاه الرئيسان فهما يونس بن حبيب وأبو الغراف ويتبعهما فى كثرة الذكـر أبو يحيى الضبى وأبو عبيدة وأبان بن عثمان ، ثم أو عمر بن العلاء ، وخلف الأحمر ، ثم الأصمعى وسلام أبوه » (٢) • ولم يعول على رأيه هو الا فى القليل النادر ، فيقول مثلا « قال ابن سلام : فلمـــا راجعت العرب رواية الشعر (٣) أو « قال ابن سلام • والمقدم عندنا : متمم بن نويرة »(٤) أو « قال ابن ســلام : وفى البحرين شــعر كثير جيــدا وفصـــاحة » (٥) •

وهذه الطريقة العلمية الموثقة بالأسانيد هى أقرب الطرق للصحة العلمية ، والتوثيق ــ فى حد ذاته ــ قيمة علمية كبرى جعلت أبا الفرج الأصفهانى يستشهد فى الأغانى بكثير من آراء ابن سلام ، وهو الأمر ذاته الذى دفع أبا على القالى فى أماليه وكذلك الزجاجى فى أماليــه ، والسيوطى فى المزهر للتعويل على كتاب ابن سلام والأخذ منه •

وهذا التوثيق يخالف ما انتهجه الأصــمعى الذى كان يبنى آرءه

---

(١) المصدر السابق نفسه ٩ •
(٢) مقدمة المستشرق (جوزيف هل) لكتاب طبقات الشعراء اعداد اللجنة الجامعية لنشر التراث ــ ببيروت ــ دار النهضة العربية
(٣) المصدر السابق نفسه ــ ص ١٤ •
(٤) المصدر السابق نفسه ــ ص ٣٨ •
(٥) المصدر السابق نفسه ــ ص ٦٩ •

لا عن رواة سابقين وانما كان مبلغ علمه هو الفيصل فى سر الأخبار(١). كما أن مشاركة ابن سلام فى تكوين الكتاب تعد أكبر من مشاركة الأصمعى فى اخراج كتابه الذى لم يضف اليه سوى آراءه هو فقط .

وفيما يتعلق بمنهج الكتاب فقد قسمه ابن سلام لقسمين متباينين: فالقسم الأول هو ما جاء فى تلك المقدمة القصيرة التى وطأ بها للكتاب ، والقسم الثانى وهو ــ عماد الكتاب وأصله ــ يحتـــوى على تصنيف الشعراء فى طبقات .

ومع أن مقدمة الكتاب لا تضم الا قدرا يسيرا ، اذا ما قـــورنت بباقى الكتاب ، الا أنها صيغت على نظام خاص محكم مما جعلها جزءا أساسيا فى الكتاب ، لمـــا تشتمل عليه من قضايا نقدية ، وأفكار لهـــا دلالتها فى تقويم الشعر ، وتصنيف الشعراء ، فيما لو قيست بعصرها ، وبمؤلفى ذلك الزمان وعلمائه .

ففى المقدمة يقرر ابن ســـلام أولا أنه كان يتمنى أن لو ألف فى طبقات الشعراء العرب وفى فرسانهم وأيامهم ، ولعل ذلك كان قد أتيح له فى كتب أخر (٢) ، وربما لم يصلنا منها الا « طبقات الشعراء » بما اشتمل عليه من بعض القضايا « ذكرنا العرب وأشعارها والمشـــهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وساداتها وأيامها ــ فاقتصرنا من ذلك على ما لا يجهله عالم ، ولا يستغنى عن علمه ناظـــر فى أمر العرب ، فبدأنا بالشعر » (٣) ..

---

(١) انظر مقدمة المستشرق (جوزيف هل) لطبعة ليدن سنة ١٩١٣م فروخ تاريخ الأدب العربى ٢/٢٤٦ .

(٢) أشار ابن النديم الى كتاب له بعنوان (الفاضل فى ملح الأخبار والأشعار) وكذا كتاب (بيوتات العرب) ــ انظر ابن النديم : الفهرست ص ٣ .

(٣) ابن سلام : طبقات الشـــعراء ــ المقدمة ص ٣ ، انظر د. محمد مندور النقد المنهجى عند العرب ص ١٨ ــ ١٩ .

على أن أهم ما يعنينا من مقدمة الكتاب تلك القضايا النقـــدية والتى تنمى « النقد الذوقى » وتدعمه التى كان له الفضل فى اثارتها أو الحديث عنها ، ويمكن ابرازها فيما يأتى :

أولا : ثقافة الناقد الأدبى ومدى خبرته بالشعر وبصره بالكلام ، فهذه الخبرة هى التى تجعل الناقد عالمـا بشعر الرجل ، وباتجاه كل شاعر ، بما يجعله مطمئنا لنسبة الشعر لقائله ، وبيان المنحـــول من الصحيح • وعن طريق تحقيق النص الأدبى ، ورده لسـمات عصره ، ونسبته لقائله بسبب ثقافة الناقد ومهارته ، وتمييزه العصور من بعضها والشعراء من غيرهم ــ يعقد ابن سلام صلة أكيدة بين النقـد وتاريخ الأدب (١) •

ويعتمد المؤلف سلامة الذوق الشخصى والتأثر الذاتى مقياســا صحيحا للحكم على الشعر ، مما عرف ــ فيما بعد ــ بالمنهج التأثرى ، فلكى يعتد برأى الناقد ومدى سلامة حكمه لا بد له من أمرين :

(أ) سعة فى الفكر وبصر بالأمور ، ودراية متأنية بالعملية النقدية، من تفسير وتعليل وشرح واستخراج حكم ، ومعرفة بصحة اللغة والنطق، ولا يعنى اتفاق مجموعة من النقاد فى مدى الثقافة وسعة الاطلاع أن تتفق آراؤهم ، فلا يعتد برأى واحد يعارض ما اتفق عليه العلماء مهما بلغت ثقافته « وقد اختلفت العلماء ــ بعد ــ فى بعض الشعراء ، كمـا اختلفت فى سائر أشياء ، فأما ما اتفقوا عليه فليس لأحد أن يخـرج منـــه » (٢) •

---

(١) المصدر السابق نفسه ــ ص ٤٦ •

(٢) المصدر السابق نفسه ــ ص ٤٦ وقد قال قائل لخلف الأحمر اذا سمعت أنا بالشعر استحسنه فما أبالى ما قلت أنت وأصحابك • فقال له =

(ب) أن يكون الناقد مدربا ومتمرسا بنقد النص الأدبى وتمييز الجيد من الردىء وأن يكون قادرا على التفحص ، فلكى يكون الناقد عارفا بالشعر يحتاج للعلم «وان كثرة المدارسه تعين على العلم» (١)، ولكى يكون صاحب ذوق — يحتاج لمداومة النظر فى الأدب • واذا كانت كثرة المدارسة والمطالعة تعين على العلم بالشعر فان الدربه وكثرة المران هى التى تربى الذوق ، وتساعد على مواضع الاستحسان والجودة فى الشعر •

وللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف العلم والصناعات ، منها ما تثقفه العين (٢) ، ومنها ما تثقفه الأذن ، ومنها ما تثقفه اليد ، ومنها ما يثقفه اللسان ، من ذلك اللؤلؤ والياقوت لايعرف كلاهما بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره • ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم (٣) ، لا يعرف جودتها بلون ولا مس ولا طراز ولا

=

خلف :اذ أخذت درهما فاستحسنته فقال لك الصراف : انه ردىء هل ينفعك استحسانك اياه ؟ انظر المصدر الساق ص ٤ طبع بريل — ليدن سنة ١٩١٣ م •

(١) المصدر السابق ص ٤ طبع ليدن سنة ١٩١٣ م مطبعة بريل •

(٢) تثقفه العين : تفطن له وتدركه ، ثم تحذق فيه ، حتى يصبح ملكة لها • والثقافة : الحذق والاتقان ، وضبط الأصول والمعرفة بجيد الشىء يثقفه ثقفا : حذقه وأتقنه ، وكان سريع الفهم لجيده ورديئه •

انظر المصدر السابق ص ٤ •

(٣) الجهبذ — بكسر الجيم والياء : الناقد الخبير من الناحية النظرية أما الناقد : فهو العارف من الناحية العلمية يتميز الدرهم والمتعود قبضها القاموس المحيط ١/٢٤١ — ٢٤٢ •

حس ولا صفة ، ويعرفها الناقد عند المعاينة فيعرف بهرجها (١) وزائفها وستوقها ومفرغها ، وان كثرة المدارسة تعين على العلم (٢) .

ويمضى ابن سلام فى شرح وجهة نظره وتأكيدها بضرب الأمثلة مما تميزه الحواس من نظر وسمع وشم ولمس .. فيقول « ومنه البصر بغريب النخيل ، والبصر بأنواع المتاع وضروريه ، واختلاف بلاده ، وتشابه لونه ومسه وذرعه ، حتى يضاف كل صنف مناه الى بلده الذى خرج منه . كذلك بصر الرقيق ، فتوصف الجارية فيقال : ناصعة اللون، جيدة الشطب نقية الثغر حسنة العين والأنف ، جيدة النهود ، طريفة اللسان ، واردة الشعر ، فتكون هذه بمائة دينار ، وبمائتى دينار،وتكون أخرى بألف دينار وأكثر ، لا يجد وصفها مزيدا على هذه الصفة ، ويقال للرجل والمرأة فى الغناء ، انه لندى الحلق ، طلى الصوت طويل النفس ، مصيب اللحن ، ويوصف الآخر بهذه الصفة وبينهما بون بعيد ، يعرف ذلك العلماء عن المعاينة والاستمتاع له ، بلا صفة ينتهى اليها ، ولا علم يوقف عليه (٣) .

---

(١) البهرج : الباطل الردىء المصنوع على شكل الدرهم والدينار ، فهو ليس عملة أصلا أما الزائف فهو الدرهم أو الدينار اذا مزجا بمعدن غريب فى أثناء ضربهما . والستوق ـ بفتح السين أو ضمها وتشديد التاء والقاف والتستوق ـ بضم التاءين الدرهم الملبس بالفضة والدينار الملبس الذى يثقب فيستخرج شىء من معدنه ثم يملأ مكانه بمعدن آخر يدانيه فى الوزن النوعى ويقل عنه فى القيمة .

(٢) المصدر السابق نفسه ـ ص ٦ .

(٣) المصدر السابق ص ٣ ـ ٤ . الشطب : الطويل الحسن الخلق ، الشطب بكسر الشين ـ الجارية الحسنة الغضة الطويلة . شعر وارد طويل مسترسل . ندى الصوت كغنى : بعيده . تطلى : لزم الغناء واللهو والطرب والتطلية : الغناء . والمتاع : ما تمتعت به وهو الثوب والمتعة وذرع الثوب تذرعه بالذراع .

وواضح أن ابن سلام يشير هنا لأثر ثقافة الناقد وخبرته بالشعر، وبصره بالكلام فى الوصول للحكم الصحيح ، وأن تلك الخبرة هى التى تجعل الناقد متذوقا لشعر الرجل ، وباتجاه كل شاعر مما يجعله مطمئنا فى رد الشعر لقائله ، وبيان المنحول من الصحيح ، ولذا يروى ابن سلام أن « خلاد بن يزيد الباهلى » كان رجلا حسن العلم بالشعر يرويه ويقوله وقد قال يوما لخلف بن حيان أبى محرز : بأى شى ترد هذه الأشعار التى تروى ؟ قال له : هل تعلم أنت منها ما أنه مصنوع لا خير فيه ؟ قال: نعم قال : فلا تنكر أن يعرفوا من ذلك ما لا تعرفه أنت (١) .

وعن طريق تحقيق النص الأدبى ، والتثبت من نسبته لقائله يعقد ابن سلام صلة قوية بين النقد وتاريخ الأدب ، ذلك أن الرواة هم الذين تزيدوا فى الأشعار ولا يصعب على أهل العلم والمعرفة تبين ذلك ، ولا ما وضع المولدون ، وانما عضل بهم أن يقول الرجل من أهل باديه من ولد الشعراء ، أو الرجل ليس من ولدهم فيشكل ذلك بعض الأشكال (٢).

كذا يتضح من كلام ابن سلام أنه طالما كانت هناك معارف تحصل بالدراسة فان الحكم على الشىء الجميل على نحو دقيق يلزمه حس وافر وأصيل ، وهذا جانب لا يحقق بمعرفة ، ولا يوقف عليه بعلم ، وانما عن طريق الممارسة النقدية والخبرة والمران والاحساس المرهف . واذا ما افتقد هذا الجانب لدى النقاد تقاربت الأحكام ، وصار وصف الأشياء

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٤ ـ طبعة بريل ليدن سنة ١٩١٣ م

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٤ ـ طبعة بريل ليدن سنة ١٩١٣ م

وأشكل : غمض واحتمل وجهين أو معنيين ، وعضل بهم الأمر : اشتد عليهم وعز .

الجميلة ــ على الرغم من اختلافها فى مقدار الجمال ــ شيئًا عاما وصيغا مكررة لا أثر لها ، ولا غناء فيها (١) •

وهذا لا ينفى أن ثمة جوانب ينبغى للناقد ادراكها وهى ما يحصل بعلم من فهمه لقواعد النحو ، وعلمه بأوزان الشعر ، وتذوقه للبيان العربى ، وكل ما يلزم لفهم نفسه وشعوره ، وعلى نتاجه الأدبى ولون ذلك النتاج • وابن سلام يذكر هنا أن أبا عمرو بن العلاء « كان أشد تسليما بالعرب ، وكان ابن أبى اسحاق وعيسى بن عمر يطعنان عليهم وكان عيسى يقول : أساء النابغة فى قوله : « وفى أنيابها السم ناقع »•

يقول : موضعها « ناقعا » (٢) • ويذكر ابن سلام موقفا مما ينبغى على الناقد الدقيق فى جوانبه اللغوية ، وفى صحة أسلوبه وصياغته ، فقد ذكر عن يونس « أن ابن أبى اسحاق قال للفرزدق فى مدحه يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شمال الشام تضربنا
بحاصب كتديف القطن منثور

---

(١) انظر د• عز الدين اسماعيل : المصادر الأدبية واللغوية فى التراث العربى ٢٢٩ • القاهرة ــ دار المعارف •

(٢) طبقات الشعراء : ٧ ، ابن رشيق : العمدة ١/٢٣٧ ــ ٢٣٨ ، المرزبانى : الموشح ٤١ • وناقعا فى الأصل على الحالية وكان حقها كذلك أى سما بالغا ثابتا ، وقبل هذا قول النابغة معتذرا للنعمان :

وعيد (أبى قابوس) فى غير كنهه
أتانى ودونى راكس فالضواجع

وبعده قوله :

يشهد فى ليل التمام سليمها
كحلى النساء فى يديه قعاقع

على عمائمنا تلقى وأرحلنـــا
على زواحف تزجى مخها رير

ــ قال ابن اسحاق : أسأت ، انما هى رير ، وكذلك قياس النحـــو فى هــذا الموضوع » (١) .

على أن « النقد الذوقى » الذى يعول عليه ابن سلام ينصرف الى نقد ذوى البصر بالشعر ، والعلم باللغة وصحة الكلام .

ثانيا : ضرورة التحقق أو التثبت من رد الشعر لقائله ، ونسـبته لصاحبه ، وتلك مسألة لا تنفصل عن النظر اليه وتقويمه .

ويقوم التحقق من النص على مقاييس فى الشعر ومدى انطباقها على العصر وعلى الشاعر ، وفى هذا ينبه ابن سلام لقضية « الوضع » أو « النحل » فى الشعر الجاهلى . ويعد أول من أثارها وأول من تناول معظم أسبابها والدواعى المؤدية اليها ، وكانت قد سبقته اشـــارات ومواقف جعلت « المفضل الضبى » و « الأصمعى » يتثبتان من كل نص أورداه أو روياه ، حيث جرحا (١) الوضاعين ، ونبها لذلك فى أكثر من موضوع ، غير أن أقوالهما جاءت عامة غير مقننة بضوابط وأسـباب ، فالقضية قديمة ونبست من فكر الباحثين المعاصرين ، وفطنة ابن سلام لها واثارتها فى مؤلفه جعله يتحرى دواعيها ويبحث عن مظانها فى الشعر الجاهلى ، وقد عزا وجودها لسببين ثانيهما ترتب على أولهما :

---

(١) المصدر السابق نفسه : ٧ . والحاصب : ريح تحمل التراب ، أو هو ما تناثر من دقاق الثلج والبرد . نديف القطن : المضروب بالمندف ليرق تزجى : تساق . والمخ نقى العظم والدماغ . والرير : الذائب من المخ ، وفى البيت (اقواء) .

(٢) جرحه كمنعه : سبه وعابه وشتمه وتنقصه وكذبه ، وجرح شاهدا أو رايا أسقط عدالته وصدقه .

١ ــ انشغال العرب بالفتوحات الاسلامية والغزوات ، وقد أدى بهم الامر ــ حينئذ ــ الى الانصراف عن رواية الشعر الى حين ، فلما دالت لهم الأمصار ، وحدث استقرار رجعوا عما انصرفوا عنه أول الأمر ، فبدأوا فى رواية الشعر الذى كان قد غاب عن حافظتهم معظمه، اما بموت الحفاظ أو باستشهادهم فى الحروب أو بنسيانهم لما حفظوه زمانا ، وطبعى أن يؤدى الانشغال بالأمور العصبية كالحرب لضعف الذاكرة وللنسيان ، وشأن من نسى أن يضيف ويختلق ليكمل النقص •

٢ ــ ونتيجة لذلك استغلت بعض القبائل قلة شعر شعرائها أو انعدامه بالمرة ، حتى أخذوا يتقولون شعرا عليهم ، ويذيعون على ألسن شعرائهم ما لم يثبت أنهم قالوه ، ولربما وصل بهم الأمر حد الايهام بأن لهم شعراء كانوا ينشدون فى المواقف المختلفة حتى غدت العصبية القبلية مبررا قويا للنحل • ويشير ابن سلام الى « حصاد » الراوية و « ابن اسحاق » على أنهما كانا أول من هجن الشعر ، ووضعا على الشعراء • وميل الاثنين للتزيد والنحل كان غرضا يبرزان به مواهبهما فى الحفظ والاستيعاب لرفع شأن جماعة أو لنيل حظوة •

« وكان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية، وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعر الرجل غيره ، ويزيد فى الأشعار » (١)

فحماد الراوية من أوائل الجامعين للشعر الجاهلى وهو الذى أضاف اليه ما أضاف ، وأنه كان غير مأمون الراوية ، ويوضح ابن سلام

---

(١) المصدر السابق نفسه ــ ص ١٤ •

أن العلماء بالشعر والشعراء وسمات كل نص واتجاهات صـــاحبه وخصائصه كانت عندهم المقدرة على تمييز المنحول من الصحيح ، فبلال ابن أبى بردة يكشف زيف حماد ووضعه حين قدم عليه البصرة ، اذ قال له بلال « ما أطرفتنى شيئا » ، فعاد اليه فأنشده القصيدة التى فى شعر الحطيئة ، مديح أبى موسى فقال : ويحك يمدح الحطيئـــة أبا موسى لا أعلم به ، وأنا أروى للحطيئة ، ولكن دعها تذهب فى الناس (١) .

وكما كانت الحاسة المتأنية المتثبة داعيا لبلال الى تمييز الشـــعر فان يونس بن حبيب يدهش من هؤلاء الذين يعتمـــدون على روايات حماد ويحذر من ذلك لمـــا يتصف به حماد من كذب وجهل باللغـــة فيقـــول :

« العجب لمن يأخذ عن حماد وكان يكذب ويلحن ويكسر (٢) .

بل وصل الأمر الى الاغارة على الشعر من داخل القبيلة ذاتها ، فيذكر أبو عبيدة أن « قراد بن حنش » من شـــعراء غطفان ، وكان جيد الشعر قليله ، وكانت شعراء غطفان تغير على شعره فتأخذه وتدعيه ، منهم زهير بن أبى سلمى ادعى هذه الأبيات (٣) .

ان الرزية لا رزية مثلهـا
ما تبتغى (غطفان) يوم أضلت
ان الـــركاب لتبتغى ذا مرة
بـ (جنوب نخل) اذا الشهور أحلت

---

(١) المصدر السابق نفسه ـ ص ١٥ .
(٢) المصدر السابق نفسه . ص ١٥ .
(٣) المصدر السابق نفسه . ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

وان « النحل » ليمتد ، حتى ليشيع فى عصر بنى أمية كتلك الأبيات « التالية » التى قالها ذو الرمة يوما وافتخر بأن لها لعروضا وان لهـــا لمرادا ومعنى بعيدا • فقال له الفرزدق وما قلت ؟ قال : قلت :

أحين أعاذت بى تميم نساءها
وجردت تجريد اليمانى من الغمد
ومدت بضبعى الـــرباب ومالك
وعمرو وشالت من ورائى بنو سعد
ومن آل يربوع زهـــــاء كأنه
زها الليل محمود النكاية والرفد

ـــ فقال له الفرزدق : لا تعودن فيها ، وأنا أحق بها منك •

قال : والله لا أعود فيها ولا أنشدها أبدا الا لك ، وهى قصـــــيدة الفرزدق التى يقول فيها :

وكنا اذا القيس قب عنـــــوده
ضربنا فوق الأنثيين على الكرد(١)

ومن الغريب حقا أن يذكر أبو عمرو بن العلاء عن الفرزدق فى عهد بنى أمية ما يؤكد نحله للشعر ، واغارته على بعض الشعراء حيث يقول: لقيت الفرزدق فى « المربد » فقلت يا أبا فراس : أحدثت شيئا ؟ قال : فقال : خذ ، ثم أنشـــدنى :

ثم دون (مية) من مستعمل قذف
ومن فلاة باه تستودع العيس

---

(١) المصدر السابق نفسه • ص ١٢٦ • الأنثيان : الأذنان • الكرد • العنق •

قال : فقلت سبحان الله ! هذا للمتلمس فقال :

اكتمها ، فلضوال الشعر أحب الى من ضوال الابل (١) .

أما « محمد بن اسحق » فكان عالمـا بالتواريخ ، وقد أضاف شعرا على الرجال ، ويدعى أن الناس يأتون بالشعر فيحمله عنهم ، فهو ناقل وليس بواضع ، وفى ذلك يقول عنه ابن سلام :

« وكن ممن هجن الشعر وأفسده » (٢) ، وحصل كل غشـــاء محمد بن اسحاق مولى آل مخرمة بن المطلب بن عبد مناف ، وكان من علماء الناس بالسير ، فنقل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لى بالشعر أنا أوتى به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذرا فكتب فى السير من أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعرا قط ، وأشـــعار النساء فضلا عن أشعار الرجال ، ثم جاوز ذلك الى عاد وثمود . أفلا يرجع الى نفسه فيقول :

من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ ألوف السنين ؟ والله يقول : « وأنه أهلك عادا الأولى ، وثمود فماأبقى » (٣) ، وقال : « وعـادا وثمود والذين من بعدهم ... » (٤) .

فابن سلام يرى أن ابن اسحاق لم يكن ليتحـــرى ما ينقله حتى ليضيف لعاد وثمود ، مع علمه بأن لغة العرب لم تكن قد توحدت فى لهجة

---

(١) المرزبانى : الموشح ١٠١ .
(٢) هجن الشعر : أدخل فيه ما ليس منه ، والغثاء كغراب : القمش والزبد والهالك والبالى ، وغثى الكلام : خلطه .
(٣) النجم : ٥٠ ـ ٥١ .
(٤) ابن سلام : طبقات الشعراء ص ١٤ .

واحدة زمن هؤلاء ، حتى ينقل عنهم شعرا ، فضلا عن أن أولية الشعر العربى لا تتجاوز المائتى سنة الأخيرتين قبل البعثة ، فكيف له يستجيب لهواه وينقل عنهم فى زمن بعيد ولهجة مخالفة ؟ .

وابن سلام يوضح أن المنحول من الشعر ما يمكن معرفته بسهولة كذلك الذى وضعه « الرواة » و « المولدون » ، أما ما لا يمكن معرفته بسهولة فذلك الذى وضعه أهل البوادى من أبناء الشعراء ، أو من غيرهم ، فلم تكن جرأة الوضاعين قد وصلت لأن يتزيد الرجل على أبيه وحسب بل لأن يضع عنه شعرا على نحو ما يرويه ابن سلام عن أبى عبيدة من أن « داود بن متمم بن نويرة قدم البصرة فى بعض ما يقدم له البدوى فى الجلب والميرة ، فنزل النحيت فأتيته أنا وابن نوح فسألناه عن شعر أبيه متمم وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيعته فلما نفذ شعر أبيه جعل يزيد فى الأشعار ويضعه لنا ، واذا كلام دون كلام متمم والوقائع التى شهدها فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله » (١) .

ويعلل ابن سلام مسلك الرواة والاخباريين فى القبائل بأن ذلك عملية تعويض لما ضاع أو فقد من شعر ولما قل من وقائع « فلما رجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها — استقل بعض العشائر شعر شعرائهم ماذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قالت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كان الرواة بعد فزادوا فى الأشعار .. (٢)

ويقول عن حسان بن ثابت : « وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد

---

(١) المصدر السابق نفسه : ١٤

(٢) المصدر السابق نفسه : ١٤ .

لما تعاضهت قريش واستتبت وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تليق به » (١) .

على نحو من هذا ألمح ابن سلام لدواعي الوضع وكان أول من أثار قضية الشك فى بعض ما روى عن الجاهليين ، وأنه كان لا يطمئن لرواية « حماد » ، ولا يستريح لما جمعه « ابن اسحاق » وعن هذا الطريق حاول وضع ضوابط لرواية الشعر وأصول للرفض أو القبول منه تتمثل فى جانب فطرى ، وهو موهبة الناقد ومدى قدرته على التمييز والتفحص فى الشعر سواء فيما يخص جودته ورداءته أو فيما يخص صدق نسبته وصحة تحقيقه فى الرد لقائله أو وضعه عليه ، وهذه الموهبة لا تتحقق الا من خلال دربة ومهارة وممارسة مستمرة ، بحيث تجعل الناقد محيطا بخصائص الشعر ؛ فللشعر صناعة وثقافة يعرفها أهل العلم كسائر أصناف الصناعات .

هذا فيما يخص القسم الأول من الكتاب وما به من اتجاهات وآراء نقدية ؛ أما ما يتعلق بالقسم الثانى منه فالظاهر أن ابن سلام حاول فيه وضع أسس لدرجات الشعر ، ولطبقات الشعراء وهو ابتكار سبق اليه ابن سلام وقلده فيه « ابن المعتز » فى كتابه طبقات الشعراء العباسيين (٢) وقد قام المنهج الذى تضمن وضع الشعراء فى طبقات على أساسين :

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٥٢ . عضه كمنع عضها وسحر ونم وجاء بالافك والبهتان وعضه فلانا : قال فيه ما لم يكن . واستتبت : هلكت .

(٢) آلفه (عبد الله ابن الخليفة محمد المعتز بالله العباسى ٢٤٧هـ/٨٦١م ـ ٢٩٦/٩٠٩ م) وقصره على من مدحوا العباسيين فى الفترة من (١٣٢ هـ ـ ٢٩٦ هـ) والتسمية لا تدل على جعله الشعراء طبقات وإنما يعد كتاب تراجم عاوه اتبع فيه طريقة التأليف الرأسى أو الطولى .

انظر د. عبد الرحمن عطية ـ مع المكتبة العربية ١٤٦ ـ ١٤٧ ببيروت سنة ١٩٨٤ م ط (٢) دار الأوزاعى .

الأســاس الأول :

الاعتداد بالجو العام أو البيئة « زمانا ومكانا » كأساس عام فى المفاضلة ، وهذا الأساس مرتبط ــ فى الوقت ذاته ــ بمدى الجــودة الفنية ، ولذا وجدناه يشرع فى تقسيم الشعراء من حيث «العصر» الى جاهليين ومخضرمين واسلاميين ، وكل عصر الى طبقات ومراتب وفقا لترتيب معين يخضع فيه للجانب الذوقى التأثرى ، حينما وجد أن الاتجاه العام فى الأحكام النقدية قبله يؤثر أمرأ القيس والنابغة وزهيرا والأعشى من الجاهليين ويجعلهم فى طبقة •

ومضى على هذا النسق فجعل شعراء الجاهلية عشر طبقات كل طبقة تنتظم أربعة شعراء متقاربين فى المستوى الفنى ودرجة الاجادة (١) • كما وجد أن اتجاه الذوق العام يؤثر الفرزدق وجريرا والأخطل والراعى من الاسلاميين ويقربهم من منزلة واحدة فى المستوى الفنى فجعلهم فى طبقة ، ثم نهج فى الكتاب كله هذا المنهج بجعل الشعراء طبقات،

---

(١) الطبقة الثانية ذكر منها كعبا والحطيئة .. وأسقط باقيها • الثالثة : النابغة الجعدى وأبو ذيئب والشماخ ولبيد ، والرابعة : طرفة وعبيد وعلقمة وعدى بن زيد • الخامسة : خداش ابن زهير والأسود بن يعفر وأبو يزيد المخبل وتميم بن أبى مقبل ، والسادسة : عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنترة بن شداد وسويد بن أبى كاهل ، والسابعة : سلامة بن جندل وحصين بن الحمام والمتلمس والمسيب بن علس ، والثامنة: عمرو بن قميئة والنمر بن تولب وأوس بن غلفاء وعوف بن عطية ، والتاسعة : ضابى بن الحارث وسويد بن كراع والحويدرة وسحيم بنى الحسحاس ، والعاشرة : أمية بن حرثان وحريث بن محفض والكميت ابن معروف وعمرو بن شأس •

حتى هؤلاء الذين اتفقوا فى الموضوع الواحد كشعراء الرثاء نجـــده يضعهم فى طبقة واحدة بعد العشر الجاهلية (١) .

وعلى هذا النحو سار ابن سلام فى تصنيف شعراء الاسلام فى عشر طبقات جعل فى كل طبقة أربعة (٢) أما المخضرمون فلم يذكرهم فى طبقة بعينها ، لكن جاء ذكرهم موزعا بين شعراء الجاهلية وصدر الاسلام على أساس أن خصائص شعرهم لا تبعد كثيرا عن خصائص الجاهليين ، واذ يوضح منهجه فى ذلك نجده يقول : « فضلنا الشعراء من أهل الجاهلية والاسلام والمخضرمين فنزلناهم منازلهم واحتججنا لكل شاعر بما وجدناه له من حجة وما قال فيه العلماء ، وقد اختلف الرواة فيهم ، فنظر قـــوم من أهل العلم بالشعر والنقاذ فى كلام العرب والعلم فى العـــربية ، اذ

---

(١) شعراء المراثى هم الذين برعوا فى الرثاء وأجادوا صياغة القصيدة ذكر منهم : المتمم بن نويرة والخنساء بنت عمرو فأعشى بأهله ثم كعب بن سعد الغنوى الطبقات ص٣٨.

(٢) الأولى : الفرزدق وجرير والأخطـل والراعى ص ٥٧ والثـانية : البعيث والقطامى وكثير الخزاعى وذو الرمة ص ١٣١ . والثالثة : كعب بن جعيل وعمرو بن أحمد وسحيم بن وثيل وأوس بن القريعى . والرابعة نهشل بن حرى حميد بن ثور والأشهب بن رميلة وعمر بن لجأ والخامسة : أبو زيد الطائى والعجير الســـلولى وعبد الله بن همـام ونافع بن لقيط . والسـادســة : عبيد الله بن قيس والأحوص بن عبدالله وجميل بن معمر ونصيب مولى عبد العزيز بن مروان . والسابعة : المتوكل الليثى ويزيد بن ربيعـة .. وزياد الأعجم وعـدى بن الرقاع . والثامنـة : عقيل بن علفـة وبشامة بن الغدير وشبيب بن البرصاء وقراد بن حنش . والتاسـعة : الأغلب وأبو النجم والعجاج ورؤبة . والعاشرة : مزاحم بن الحارس ويزيد ابن الطثرية وأبو داود الرواسى والقحيف

اختلف الرواة وقالوا بآرائهم ، وقالت العشائر بأهوائها فلا ينفع الناس من ذلك الا الرواية عمن تقدم ، فاقتصرنا فى هذا على فحول الشعراء الاسلاميين للاستغناء عن فحول شعراء الجاهلية بطبقات المؤلفة فى ذلك ورتبت هذا المؤلف على عشر طبقات كل طبقة تجمع أربعة » (١) .

وابن سلام فى هذا النص يبين طريقته فى الانتقاء والاختيار وأنه اعتمد فى ذلك على الذوق العام وما جمعه من براهين وأدلة فى تقديم من قدم منهم مع تحكيم ذوقه أحيانا ان لم يجد ما يستند عليه من رأى (٢) .

ولكن أهذا التقسيم أملته أحداث معينة غيرت من حركة الزمان حيث أن مضمون الزمان أحدث اختلافا بين ما هو جاهلى وما هو اسلامى ؟ وهل اضطر ابن سلام لذلك التقسيم اضطرارا لوجود فارق جوهرى بين عهدين مختلفين ، كما يرى الدكتور مندور أن اتخاذ ابن سلام للزمان مقياسا للتقسيم كان أمرا « لم يكن منه بد ، اذ قد جاء الاسلام فأحدث فى حياة العرب « ثورة روحية » ومادية كانت لها آثارها البعيدة فى كل مظاهر نشاطهم » (٣) .

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٠ ـ طبع ليدن سنة ١٩١٣م .

(٢) والكتاب مقسم حسب منهجه العلمى لخمسة أقسام :
أ ـ طبقة الجاهليين وذكر منهم ٣٨ شاعرا .
ب ـ أصحاب المراثى وذكر منهم ٤ شعراء .
جـ ـ شعراء القرى وذكر منهم ١٧ شاعرا .
د ـ شعراء اليهود وذكر منهم ٨ شعراء .
هـ ـ شعراء الاسلام وذكر منهم ٤٠ شاعرا .

(٣) د. مندور (محمد) النقد المنهجى عند العرب ص ١٢ .

اذا كان ابن سلام قد نظر فوجد تمايزا واضحا بين عصرين اختلفا فكرا وعقيدة فالتفت لتقسيم الشعراء الى جاهليين واسلاميين فهل معنى ذلك أنه لم يقصد لهذا التقسيم بتاتا ، ولم يدر بخلده النظر فيه ؟ • ان مما يغلب على الظن أن ابن سلام هدف لهذا التقسيم الزمانى باعتباره يميز (السابق عن (اللاحق) و (المتبوع) عن (التابع) و (المحافظ) عن (المجدد) ، كما قد قصد للنظر نحو المكان واعتد فيه بشعراء آخرين •

وكانت نظرته للمكان دافعة للحديث عن شعراء (القرى العربية) وهم الذين أقاموا فى حواضر ، واستقروا بها ، ولم يتحولوا عنها الى البوادى والوديان وهى خمس : المدينة (١) ومكة (٢) واليمامة والطائف (٣) والبحرين (٤) ، فجعلهم فى طبقة ، ونظر فوجد أشعر هذه (القرى) على الاطلاق من حيث الجودة الفنية ومن حيث شرف المعنى ــ المدينة ، وذكر عددا من الشعراء لكل (قرية) غير أنه لم يشأ أن يذكر ولو شاعرا واحد لليمامة ، حيث قال : « لا أعرف فى اليمامة

---

(١) حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وقيس بن الخطيم وأبو قيس ابن الأسلت • وأشعرهم حسان بن ثابت كثير الشعر جيده (طبقات الشعراء ص ٥٢) •

(٢) عبد الله بن الزبعرى وأبو طالب بن عبد المطلب وأبو سفيان ابن الحارث وابن حذافة وهبيرة بن أبى وهب • طبقات الشعراء ص ٥٧ •

(٣) أبو الصلت بن أبى الصلت وهو أشعرهم وغيلان بن أبى سلمة وكنانة بن عبد ياليل • طبقات الشعراء ص ٦٦ •

(٤) وفى البحرين شعر كثير جيد وفصاحة : منهم المثقب وهو عائذ ابن محصن • ومنهم المزق العبدي •• ومنهم المفضل بن مشعر •• المصدر السابق ٦٩ ــ ٧٠ •

شاعرا مشهورا » (١) • كما قد خص شعراء (اليهود) بقسم قائم فيما يبدو على أساس العرق أو العقيدة ، وقد يكون تأثرهم بطبيعة (الديانة اليهودية) حافزا له لتخصيصهم بطبقة (٢) ، على أن تصنيف الشعر الى اتجاهات وتمييز بعض الشعراء ، وتفصيل القول فى (شعراء القرى) و (شعراء الرثاء) باعتباره جنسا أدبيا قائما بذاته والوقوف عند (شعراء اليهود) مع أنهم يسكنون المدينة وأكنافها ــ يعد نظرة فنية لها قيمتها •

وقد جرى فى هذا التقسيم على أساس (تحكمى) ناشىء عن تشابه الشعر ومقاربته ، كما هو ناشىء عن جودته وغرضه ، الا أنه لم يشأ أن يتحدث عمن اشتركوا فى الموضوعات الا أصحاب المراثى دون نظر لشعراء الغزل أو العتاب أو المدح والفخر ، كما قد خرج عن أطر التحديد العددى لكل طبقة ، اذ لم يلزم نفسه جعل شعراء القرى أربعا ، بل اختلف الامر فذكر من شعراء المدينة خمسة ، ومن شعراء مكة خمسة ، ومن شعراء البحرين ثلاثة ولم يستطع ذكر شاعر واحد لقرية اليمامة • على أن هذه الطبقات من أصحاب المراثى وشعراء القرى وشعراء اليهود ذكرت عقيب طبقة شعراء الجاهليين •

---

(١) المصدر السابق ص ٧٠ •

(٢) قال عنهم :

« وفى اليهود المدنية وأكنافها شعر جيد ، منهم السموءل بن عاديا من أهل تيماء •• ومنهم الربيع بن أبى الحقيق من بنى النضير • وكعب بن الأشراف ، وهو من طى ، وشريح بن عمران •• وشعبة بن عزيض •• وأبو قيس بن رفاعة •• وأبو الذبال •• ودرهم بن زيد » •

المصدر السابق نفسه (٧٢ ــ ٧٤) •

وابن سلام فى حديثة عن الجو العام أو البيئة وأثرها على الشعراء كان حريصا على ألا يرد (النتاج الادبى) وما أبدعه الشاعر من اتجاهات لتلك العوامل ردا كاملا ، فالبيئة (زمانا وأحداثا وفكرا) لها أثرها فى تكوين الأدب ، ولكنه ليس كل الأثر على الاطلاق ، اذ يبقى ما يتصل بـ (الموهبة) الذاتية ، وما ينضاف لـ (عبقرية) الفردية التى ينظر اليها باعتبارها قوة خفية هائلة تحيط بالفرد وتستقل بابداعه ، ولكنها لا تظهر الا بجهد صاحبها وثقافته وبوجوده فى وسط جماعة من الناس يتفاعل معهم ويتفاعلون معه ، ولقد ظهرت نظريات مختلفة فى العصر الحديث منها ما يرد (القـدرة الابداعية) فى الفرد لعوامل (بيولوجية) (١) جسدية ومنها ما يردها لعوامل (روحية) (٢) ومنها ما يردها لعوامل (انتاجية مادية) (٣) .

ومن النقاد من ينكر (القدرة العبقرية) أصلا (٤) أو من يزاوج بين القدرة العبقرية والصنعة (٥) .

---

(١) هيبوليت أدولف تين ١٨٢٨ ـ ١٨٩٣
ناقد فرنسى حاول أن يطبق المنهج العلمى فى النقد .

(٢) جورج فلهم فردريك هيجل ١٧٧٠ ـ ١٨٣١ م
فيلسوف ألمانى صاحب المنطق الجدلى الهيجلى .

(٣) كارل ماركس ١٨١٨ ـ ١٨٨٣ م فيلسوف اجتماعى ألمانى فى الأصل أشهر آثاره رأس المال .

(٤) يقول الدكتور محمد مندور (أنا لا أؤمن بشىء اسمه الالهام والوحى والعبقرية وانما أعرف التثقيف وابداع الصناعة ونقد ما نكتب والجهد وطول المران ..) فى الميزان الجديد ١٣٠ ، ١٤٨ .

(٥) يذهب شيلى وادجار ألن بو وأندريه جيد الى أن الفن عرق وجهد شاق ورأى (كولردج) أن العبقرية لا تستطيع أن تظهر نفسها دون الصنعة والجهد الواعى .
انظر د. يوسف بكار : بناء القصيدة فى النقد العربى القديم فى ضوء النقد الحديث ص ٨١ ـ ٨٢ دار الأندلس ـ بيروت ١٩٨٣ م .

لكن الحقيقة « أن ابن سلام أصاب شاكلة الصواب وحداه التوفيق حين ضم الى المبادىء الثلاث ، ذلك المبدأ الأخير الذى سبق به أئمة الغرب وأعلام (المنهج التاريخى) عنـــدهم ، فبينما المنهج التاريخى عند (تين) ألغى الموهبة الغاء تاما ولم يول العبقرية أدنى حظ من الاهتمام أو الالتفات ، اذ بابن سلام الناقد العربى يفطن الى مبدأ له وزنه فى تقديم شاعر على سواه ، أو فى ابراز ما له من خصائص فنية تكسو شعره من مثل قوله عن لبيد مثلا :

وكان لبيد بن ربيعة أبو عقيل فارسا شجاعا ، وكان عذب المنطق رقيق حواشى الكلام ، وكان مسلما رجل صدق (١) .

الأساس الثانى فى المفاضلة بين الشعراء :

فضـــلا عن العصر والمكان هو الاعتـــداد بالقيم الجمالية ومدى الجودة الفنية فى الشعر ومرد هذا التفضيل لمعايير ثلاثة :

١ ــ المعيار الأول كثرة شعر الرجل .
٢ ــ المعيار الثانى تعدد أغراض شعره .
٣ ــ المعيار الثالث أثر القيم الجمالية فيه .

فكثرة شعر الرجل لها الدرجة الأولى ، اذ أن اقتصار الشاعر على قصيدة واحـــدة لا ينهض دليلا على تقدمه ، وعلى الشاعر لكى تصقل تجربته وموهبته أن يتمرس بكثرة الشعر ، فعندما تحدث عن (الأسود ابن يعفر) قال عنه : « كان الأسود شاعرا فحلا وكان يكثر التنقل فى

---

(١) د. ابو عيسى (فتحى محمد) دراسة فى مناهج البحث الأدبى ٥١ ــ القاهرة سنة ١٩٨٠ دار الشعب .

العرب يجاورهم فيذم ويمدح ، وله فى ذلك أشعار ، وله واحدة طويلة رائعة لاحقة بأول الشعر لو كان شفعها بمثلها قدمناه على أهل مرتبته وهى :

نام الخلى فما أحس رقادى
والهم محتضر لدى وسادى

وله شعر كثير جيد ولا كهذه ، وذكر بعض أصحابنا أنه سمع المفضل يقول : له ثلاثون ومائة قصيدة • ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريبا منه » (١) •

فالذى منع تقدم (الأسود) على طبقته أن ليس له الا قصيدة واحدة طويلة لم تشفع بمثلها فى الجودة وأن ابن سلام لا يعرف له شعرا جيدا غيرها ، فلذا أخره ، واعتماد ابن سلام (الكوم) فى الدرجة الأولى مقياسا لجودة الشعر جعله يقدم من حقه التأخير ويؤخر من حقه التقديم ، فالذى أخر طرفة بن العبد عن أن يكون فى الطبقة الأولى مع امرىء القيس قلة ما روى عنه من شعر اذ ليس بأيدى الرواة الا النذر اليسير كالمطولة (الدالية) لخولة أطلال ببرقة تهمد و (الرائسة) (أصحوت اليوم أم شاقتك هر) مع أن ابن سلام لا ينكر أن له قصائد أخر حسان جياد وهو السبب ذاته فى تأخير عبيد بن الأبرص وعلقمة الفحل وعدى بن زيد وقد جعلهم ابن سلام فى الطبقة الرابعة وقال عنهم « هم أربعة رهط فحول شعراء موضعهم مع الأوائل ، وانما أخل بهم قلة شعرهم بأيدى الرواة » (٢) •

---

(١) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ص ٣٠ وهذا مما يؤكد فقدان كثير من الشعر القديم •
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٣٠ •

وكذلك الأمر بالنسبة لشعراء الطبقة السابعة : سلامة بن جنـــدل وحصين بن الحمام والمتلمس والمسيب وهم « أربعة رهط محكمون فى أشعارهم قلة ، فذلك الذى أخرهم » (١) فالمقياس الذى حكمه ابن سلام يدل على أنه اذا تساوى شاعران فى مدى الجودة الفنية ، وفى تنـــوع الأغراض ، الا أن ما روى عن أحدهما يعد أكثر مما روى عن الآخر جاء الأول فى مرتبة أرقى من الثانى •

على أن تنوع الموضوعات وكثرتها مبنى على مدى الاجادة فى ألوان متعددة من المدح والهجاء والرثاء والعتاب والغزل والوصف •• هـــذا التنـــوع يحفظ له رتبة أعلى بين الشعراء ، فاذا ما أجاد شـــاعران فى موضوع كالغزل أو المدح أو الرثاء وجاء أحدهما سابقا ومجيدا فى هـــذا الفن اجادة تحكم له بالتقدم عن نظيره فلا يوضـــع فى مرتبة أعلى من نظيره الا اذا كثرت أغراضه الأخرى مع أنها ليست داخله فى الحكم ، فالذى جعل (كثيرا) شاعرا فحلا مقدما فى الطبقة الثانية من الاسلاميين مع أنه كان متقولا وليس بعاشق ـــ كونه يجيد المديح جدا ، يقول : كان يستقصى المديح ، وكان فيه ـــ مع جودة شعره ـــ خطل وعجب ، وكانت له منزلة عند قريش) (٢) •

ويوازن ابن ســـلام بين (كثير وجميل) ويقدم (كثير) على (جميل) لمـــا رأى له من شعر فى غير النسيب حتى ليقول « وكان كثير فى التشبيب نصيب وافر ، وجميل مقدم عليه فى النسيب وله فى فنون

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٣٦ •
(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٢٣ •

الشعر ما ليس لجميل • وكان جميل صادق الصبابة ، وكان كثير ــ يقول ، ولم يكن عاشقا ، وكان راوية جميل » (١) •

فجميل وروايته اشتهرا بالنسيب الا أن جميلا يفوق كثيرا فى هذا لصدق صبابته ، ومع ذلك فابن سلام يضع كثيرا فى الطبقة الثانية وجميلا فى الطبقة السادسة ، والسبب ــ كما يرى ــ أن كثيرا قال فى غير النسيب ما ليس لجميل كالمدح وغيره • وهذا الحكم من ابن سلام غير دقيق لأن مقياسه تعــدد الأغراض (الكم) لا الجــودة فى النسيب مثلا ، ففيه مفاضلة فيما لم يتفقا فيه ، فضلا عن شمولية الحكم •

أما جودة الشعر فمردها لقوة الأسر ، مع العبارة ، فاذا تســاوا شاعران فى كثرة النتاج ، وفى تعدد الأغراض فالمقياس ــ بعد ذلك ــ مرده لمــا فى شعر كل منهما من جودة فنية فعندما تحدث عن الشماخ ابن ضرار أشار الى أنه (كان شديد متون الشعر ، أشد أسر الكلام من لبيد ، وفيه كزازة ، ولبيد أسهل منه منطقا) (٢) •

ويمكن القول ان طبقات الشعراء يبرز جانبا من (ذاتية الفن) فى المنهج التأثرى للنقد استعرض فيه ابن سلام اتجاهات النقد وصوره فى الجاهلية وصدر الاسلام فيما يتعلق ببعض الألفاظ ، أو العيــوب العروضية أو الحقائق المحلية المــأخوذة عن البيئات البدوية • وكان تصنيفه الشعراء فى طبقات مختلفة دافعا الى أن يتطرق للمنهج التاريخى

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٢٤ •

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٣٩ • متن ككرم : صــلب ، والمتن : الرجل الصلب وشــديد متون الشــعر : قوى احكام القصيدة • والأسر : الشد والعصب وشدة الخلق • والكز : اليبس والانقباض ووجه كز : فى عودها يبس عن الانعطاف

فى دراسته للاشعراء ، الا أنه كان يطيل النظر نحو المنهج الفنى من حيث الألفاظ ودلالتها وصحة الأسلوب وسلامة اللغة والعيوب العروضية ومخالفة العرف .

وفى لمحات موجزة يشير للمنهج النفسى فى تفسير الأدب حين يعرض للدوافع التى يكثر بها الشعر ، ولتلك التى يرق بها ، ويرجع ذلك لعوامل اجتماعية وبيئية ونفسية فالحروب بين أهل البوادى من شأنها انماء الشعر واذكاء القرائح للحمية القبلية ، كما أن قلة الحروب أو انعدامها فى بعض القبائل بقريش أو القرى كالطائف هو الذى أضعف شعرهم ، أو ربما قلل من شأن اثارة الحمية القبلية ، وكذلك الاقامة فى الحواضر تبعث على رقة العواطف وسهولة الألفاظ فى حين أن سكنى البوادى والمناطق الوعرة هو الباعث على الاغراق فى غريب الألفاظ وشارد اللغة .

« وبالطائف شعراء وليس بالكثير ، وانما يكثر الشعر بالحروب التى تكون بين الأحياء ، نحو حرب الأوس والخزرج أو قوم يغيرون أو يغار عليهم . والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذى قلل شعر عمان . وأهل الطائف فى طرف ، ومع ذلك كان فيهم أبو الصلت » (١) ، كما يعلل لرقة شعر عدى بن زيد ابن الرقاع بأنه « كان يسكن الحيرة ومراكز الريف فلان لسانه ، وسهل منطقه فحمل عليه شىء كثير » (٢) . ويتضح أثر الروح العلمى هنا فى محاولته لتفسير بعض الظواهر الأدبية .

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٦٥ ـ ٦٦ طبع بريل ـ ليدن سنة ١٩١٣ م .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٣١ طبع بريل ـ ليدن سنة ١٩١٣ م وركز : ثبت وجاور واستقر . والريف أرض بها زرع وخصب غير البادية .

وابن سلام فى هذا يعد من أوائل من نبه لأثر البيئة فى الشعر ، وللدواعى النفسية التى ترقق العواطف . وهذا مبدأ صحيح الا أن ابن سلام لم يستطع أن يستخلص من ذلك مبدءا من مبادىء النقد ، وان كان قد حاول أن يعلل الظواهر الادبية تعليلا موضوعيا (١) .

وثمة ملاحظة فى حديثه عن أثر البيئة ، ذلك أنه لم يذكر أحدا من شعراء اليمامة معللا بأنه لا يعرف لها شاعرا مشهورا مع أنه لو نتبع لوجد لليمامة شعراء كما وجد للبحرين والطائف ، كما أنه لم يذكر شيئا عن شعراء عمان فى القديم معللا ذلك بأنهم كالقريشيين لم تكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا وهذا حكم غير دقيق لا يمكن التسليم به ، اذ تذكر كتب الأدب (٢) من خطباء عبد القيس وشعراء الأزد فى عمان عددا كبيرا . منهم المثقب العبدى والخليل بن أحمد الفراهيدى وكعب ابن معدان الأشقرى ت ١٠٤هـ وغيرهم (٣) ، « كما أن الشعر ليس كله

---

(١) انظر : الأستاذ طه أحمد ابراهيم تاريخ النقد عند العرب ص ٨٦ ـ ٨٨ ، الدكتور / محمد مندور : النقد المنهجى عند العرب ١٠ ـ ١١ ، والدكتور / محمد غنيمى هلال : النقد الأدبى الحديث ١٧٩ .

(٢) الجاحظ (أبو عثمان عمر بن بحر) البيان والتبيين ٣٤٨/١ ، ٩٣/٤ أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ٢٨٣/١٤ ـ ٣٠١ ، د . على عبدالخالق الشعر العمانى ص ١٧ ـ ١٩ دار المعارف مصر سنة ١٩٨٤ م .

(٣) انظر الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر)البيان والتبيين ٣٥٨/٣ بتحقيق عبد السلام هارون طبعة (١) الخانجى سنة ١٩٦١ م ـ القاهرة ، ابن قتيبة الشعر والشعراء ٣٩٥/١ . أبو الفرج الأصبهانى : الأغانى ٢٨٣/١٤ ـ ٣٠١ وكعب من الأشارقة ، وهى قبيلة ازدية قال المتلمس للفرزدق يوما : يا ابا فراس ، أشعرت أنه قد نبغ من عمان شاعر من الأزد يقال له كعب ؟ أى والذى خلق الشعر ، وعده الفرزدق رابع أربعة من شعراء الاسلام : الفرزدق وجرير والأخطل وكعب .

فى الحرب ، ولا هو قاصر عليها ، بل ان فيه مصادرة على المطلوب . فليس بصحيح أن الشعر كان نادرا فى مكة مثلا خصوصا بعد الاسلام وانما أسقط ابن سلام من حسابه ــ لسبب لا نعرفه ــ الكثير من الغزلين ، وعلى رأسهم عمر بن أبى ربيعة الذى لم يذكره أصلا » (١).

وعلى الرغم من أن ابن سلام ذا افق واسع وفكر صائب فى آرائه النقديه من الناحية النظرية فى مقدمة الكتاب ــ فانه حينما حاول تطبيق هذه النظرية فى الحديث عن الشعراء لم يكن مصيبا كل الصواب ، فقد ضيق على نفسه فى حصر الطبقات ، كما اتسمت أحكامه بالعمومية فى أحوال كثيرة ، اذ قد جعل الشعراء الجاهليين والاسلاميين فى عشر مراتب فى كل واحدة أربعة شعراء ، فلم حصر نفسه فى هذا العدد ، ولم الزم نفسه ذلك ، أو ضيق عليها الدائرة ؟ مع أنه لم يشأ أن يذكر سببا لذلك سوى أنه وجد أن الاتجاه العام يؤثر امرأ القيس والنابغة والأعشى وزهيرا من الجاهليين ويجعلهم فى منزلة فسار على هذا الاتجاه . ولقد وقف اقتصاره على هذا العدد فى كل طبقة حائلا دون محاولة النظر للشعراء نظرة عامة ، حتى أنه ليعترف بأن بعض الشعراء كان من حقهم أن يوضعوا فى مرتبة أعلى من التى وضعوا فيها وأن الذى منعه من ذلك التزامه بعدد محدد من الشعراء لا يتجاوزه ، فقد وضع (أوس بن حجر) فى الطبقة الثانية من الجاهليين مع اقتناعه بأن (أوس بن حجر) مثل شعراء الطبقة الأولى الأربعة وما منعه من وضعه معهم سوى اقتصاره على الأربعة « وأوس نظير الأربعة المتقدمين الا أننا اقتصرنا فى الطبقات

---

(١) د. محمد مندور : النقد المنهجى عند العرب ص ٢١ .

على أربعة فقط » (١) • كما أن الأساس الذى سار عليه ابن سلام فى المفاضلة بين الشعراء يخضع فيه للاتجاه الفنى الذوقى لغالب أحكامه وان كان قد تطرق للمنهج التاريخى وأشار للمنهج النفسى فى بعض أحكامه •

وكان احتكامه للمنهج الفنى متسما ــ فى أغلبه ــ اما بالعمومية فى بعض الأحكام أو خاضع لعامل الكثرة لا الجودة فى آن آخر ــ كما سبق بيانه ، فمن الأحكام المتأثرة بالعمومية والابهام حكمه على البعيث المجاشعى (٢) بأنه « كان شاعرا فاخر الكلام ، حر اللفظ ، وقد غلبه جرير وأخمله ، وكان قد قاوم جريرا فى قصائد ، ثم جنح الى الفرزدق واستغاثه » (٣) وحكمه على القطامى (٤) بأنه كان شاعرا فحلا ، رقيق الحواشى ، حلو الشعر ، والأخطل أبعد منه ذكرا ، وأمتن شعرا » (٥) •

فالبعيث فى نظر ابن سلام فاخر الكلام حر اللفظ وهذا تعميم فى حكم غير معلل ومفسر • وفى المفاضلة بينه وبين جرير يشير ابن سلام الى أن جريرا غلبه وفاق عليه ولم يشأ أن يذكر دليلا يؤيد حكمه •

---

(١) طبقات الشعراء ٩٧/١ طبع مصر ، انظر د• عز الدين اسماعيل **المصادر الأدبية واللغوية فى التراث العربى** ٢٢٥ ــ ٢٣٣ •

(٢) خداش بن بشر من بنى مجاشع ، عاش بالبصرة وتوفى بها سنة ١٣٤ هـ وهجا جريرا •

(٣) طبقات الشعراء ص ١٣١ ــ طبع ليدن سنة ١٩١٣ هـ •

(٤) عمير بن شييم توفى سنة ١٠١ هـ بدوى يعبر عن عاطفة الدين يتكسب فيهم أكثر مما يعبر عن نفسه ، أقل شطرة من الأخطل يجيد المدح والفخر والهجاء وهو وصاف بارع تعد ابتداءاته من أبدع الابتداءات •

(٥) طبقات الشعراء ص ١٣١ •

والقطامى ــ فى نظره ــ فحل ، رقيق الحواشى حلو الشعر وهذا حكم عام وغير معلل وحتى تفضيل الأخطل عليه لا نجد الا تعميما واطلاقا للأحكام حيث يقول « ان الاخطل أبعد منه ذكرا وأمتن شعرا » ويقاس على ذلك كل الأحكام العامة التى نقلها فى كتابه،كقول أبى عمرو بن العلاء عن الأعشى « مثله مثل البازى يضرب كبير الطير وصغيره » (١) وقول ابن سلام فى الحطيئة « كان الحطيئة متين الشعر ، شرود القافية » (٢) ، وقوله فى لبيد « وكان لبيد بن ربيعة أبو عقيل فارسا شاعرا شجاعا ، وكان عذب المنطق ، رقيق حواشى الكلام » (٣) وقول أبى عمرو بن العلاء عن ذى الرمة « انما شعره نقط عروس يضمحل عن قليل وأبعار ظباء لها مشم فى أول شمها ثم تعود الى أزواج البعر » (٤) وقول ابن سلام عن عبد بنى الحسحاس « حلو الشعر رقيق حواشى الكلام » (٥) وغير ذلك مما نجده مبثوثا فى الكتاب من آراء النقاد ونظرات ابن سلام •

على أن النظرات لا تقلل من قيمة عمل ابن سلام فهو ــ بمقياس زمانه ــ يعد عملا رائدا وخطوة موفقة للنقد الموصل فى الأدب العربى لا يمكن اغفال دلالتها الفنية والتاريخية والنفسية •

د• على عبد الخالق على حسن
أستاذ الأدب والنقد المساعد بكلية اللغة العربية بالمنوفية

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ١٩ •
(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢١ •
(٣) المصدر السابق نفسه ص ٣٩ •
(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٣٥ •
(٥) المصدر السابق نفسه ص ٣٣ ، ٥٤ ، ٨٦ ، ١٥٠ ، ١٠٧ ، ١٣٣ ، ١٣٢ •